# الفصل الخامس

## من حكمه ومواعظه وتوجيهاته

إن لابن المبارك من الحكم والمواعظ والتوجيهات الكثير ، اقتصرنا منها على قدر يسير ، وذلك أن المجال المستفيض لدراسة هذه النواحى عند ابن المبارك إنما هو فى روايته المستفيضة للأحاديث وهو لم يقتصر فى هذه الرويات على أحاديث رسول الله ﷺ وإنما روى الكثير من حكم الحسن البصرى وغير الحسن البصرى من أفاضل الأمة الإسلامية ، ورواياته هذه إنما هى مختارات ، ولقد سئل مرة : هل تشتغل بحفظ الآثار فقال : إننى لا أشغل نفسى بحفظ شىء ، وإنما أنظر فى الكتب فما استحسنته نقش فى صدرى .

إن رواياته إنما هى اختيار له ، واختيار المرء قطعة من عقله ، ومن شعوره ووجدانه ، إنما طابعه وخلقه – ولقد استفضنا فى الرواية عنه فى مجال الآثار ، وفى ذلك غناء عن الاستفاضة وفى إيراد حكمه ومواعظه ، وها هى ذى بعض حكمه ومواعظه وتوجيهاته :

عن ابن المبارك أنه سأله رجل عن الرباط فقال : رابط بنفسك على الحق حتى تقيمها على الحق ،فذلك أفضل الرباط .

وكان يقول: كيف يدعى رجل أنه أكثر علمًا وهو أقل خوفًا وزهدًا.

وكان يقول : من ختم نهاره بذكر ، كتب نهاره ذاكرًا ، وكان يتحرى هذا العمل .

وكان يقول : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تعظمه النية .

وكان رضى الله عنه يتمثل بهذين البيتين من كلامه :

وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبـــار سـوء ورهبانها
لقد رتع القـــوم فى جيفة يبين لذى العلـــم إنتانهـا

وكان رضى الله عنه يقول : مسكين ابن آدم قد وكل به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار ، يجيئان ويذهبان والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارًا ، وكان إذا اشتهى شيئًا لا يأكله إلا مع ضيف .

وكان ينشد إذا ودع شخصًا :

وهون وجدى أن فرقة بيننا فراق حيـاة لا فراق ممات

وسئل عبد الله : ما ينبغى أن يجعل عظمة شكرنا له ؟ قال زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم ، وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دنياكم وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم .

وعن عبد الله بن المبارك قال : حب الدنيا فى القلب والذنوب احوشته ، فمتى يصل الخير إليه ؟ .

قال ابن المبارك : إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب .

وكان يقول : كن محبًّا للخمول كارهًا للشهرة ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك .

وقال عبد الله بن المبارك : ودعنى ابن جريج فقال :استودعك الله إن كنت لمأمونًا .

قال : وودعنى ابن عوف فقال : إن استطعت أن تكون مهتارًا بذكر الله فكن .

قال عبد الله بن المبارك : لو أن رجلين اصطحبا فى الطريق ، فأراد أحدهما أن يصلى ركعتين ، فتركهما لأجل صاحبه ، كان ذلك رياء ، وإن صلاهما من صاحبه فهو شرك .

عن ابن وهب قال : رأى رجل سهيل بن على فى المنام فقال : ما فعل بك ربك ؟ قال : نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك ، قلت له : ما تلك الكلمة ؟ ، قال : قول الرجل يارب عفوك عفوك .

عن عبدالله بن المبارك ، عن أبى بكر بن عياش قال : اجتمع أربع ملوك ملك فارس ؛ وملك الروم ، وملك الهند ، وملك الصين ، فتكلموا بأربع كلمات كأنما رمى بهن عن قوس واحدة ، فقال أحدهم : أنا على قول ما لم أقدر منى على رد ما قلت ، وقال الآخر إذا قلتها ملكتنى ، وإذا لم أقدر ملكتها . وقال الآخر : لا أندم على ما لم أقل ، وقد أندم على ما قلت ، وقال الآخر عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت عليه ضرته وإن لم ترفع عليه لم تنفعه .

عن عبدالله بن المبارك عمن أخبره قال : قدم وفد من وفود العرب على معاوية فقال لهم :ما تعدون المروءة فيكم ؟ :

قالوا : العفاف فى الدين ، والإصلاح فى المعيشة .

فقال معاوية : أسمع يا يزيد .

قال رجل لابن المبارك : بقى من ينصح ؟ قال فهل بقى من يقبل ؟ .

وكان يقول : كاد الأدب أن يكون ثلثى الدين .

وقيل له إن جماعة من أهل العلم يأخذون من الناس الزكوات .

فقال : فما نصنع . إن منعناهم وقفوا عن طلب العلم ، وإن رخصنا لهم حصلوا العلم وتحصيل العلم أفضل .

وكان يقول : لأن أرد درهما من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بستمائة ألف ألف .

وقيل له : ما التواضع ؟قال التكبر على الأغنياء .

وذكر لعبدالله ما كان عليه يوسف بن أسباط من العبادة ، فقال : لقد ذكرتم قوما يستشفى بذكرهم ، ولكن إن فعل الناس جميعهم ذلك ، فمن لسنن رسول الله ﷺ .

وعن الوليد بن عقبة قال :قال عبدالله بن المبارك طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون .

عن أبى أمية الأسود قال : سمعت عبدالله بن المبارك يقول :

أحب الصالحين ولست منهم ، وأبغض الطالحين وأنا شر منهم .

ثم أنشد عبد الله يقول :

الصمت أزين بالفتى ... من منطق فى غير حينه
والصدق أجمل بالفتى ... فى القول عندى من يمينه
وعلى الفتى بوقاره ... سمة تلوح على جبينه
فمن الذى يخفى عليك ... إذا نظرت إلى قرينه
رب امرئ متيقن ... غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه ... فاتباع دنياه بدينه

قام رجل إلى ابن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمن فى أى شىء أجعل فضل يومى ، فى تعلم القرآن ، أو فى طلب العلم ؟ فقال : هل

تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال :نعم ، قال : فاجعله فى طلب العلم الذى يعرف القرآن .

عن الحسين بن الحسن المروزى ، قال سمعت ابن المبارك يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل .

حدثنا أبو بكر الصوفى عن بعضهم قال : ورد على أمير المؤمنين الرشيد كتاب صاحب الحيرة من هيت أنه مات رجل بهذا الموضع غريب ، فاجتمع الناس على جنازته ، فسألت عنه فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراسانى ، فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل – للفضل بن الربيع وزيره – ائذن فى الناس من يعذرنا فى عبد الله ابن المبارك ، فأظهر الفضل تعجبا ، فقال : ويحك ! إن عبدالله هو الذى يقول :

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمه فى صدور العامة ، ولا يعرف حقنا .

عن عبد الرحمن بن عبيد الله يقول : كنا عند الفضل بن عياض فجاء فتى – فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين – فنعى إليه ابن المبارك ، فقال : رحمه الله ، أما إنه ما خلف بعده مثله .

وكان رضى الله عنه يقول : ما بقى فى زماننا أحد أعرف أنه يأخذ النصيحة بانشراح قلب وقيل له : كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد هم بحسنة ؟ فقال رضى الله عنه : يجدون ريحها .

وكان رضى الله عنه يقول : أربع كلمات انتخبن من أربعة آلاف حديث لا تثقن بامرأة ، ولا تغترن بمال ، ولا تحمل مصرتك ما لا تطيق وتعلم من العلم ما ينفعك فقط .

وعن سعيد بن داود يقول سألت ابن المبارك : من الناس ؟ قال العماء ، قلت فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قلت : فمن السفلة ؟ قال الذين يعيشون بدينهم .

# المراجع


كتاب الزهد والرقائق – لابن المبارك – تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى

كتاب الجهاد – تحقيق الأستاذ نزيه حماد

عبدالله المبارك – تأليف الدكتور عبد المجيد المحتسب

عبدالله المبارك – تأليف فضيلة الشيخ أبو الوفا المرغى

حلية الأولياء – لأبى نعيم

صفة الصفوة – لابن الجوزى

تاريخ بغداد – للخطيب البغدادى

الكواكب الدرية – للامام المناوى

وفيات الأعيان – لابن خلكان

الطبقات الكبرى – للشعرانى